

حديث المساء: فراغ ...

طه حسين

كوكب الشرق

٢٢ فبراير ١٩٣٤

يجب أن تهناً الوزارة بما تنعم به من فراغ البال، وراحة القلب، واطمئنان الضمير؛ فهذه نعمة لا تتاح لكثير من الناس، ولا تتاح لوزارة من الوزارات في هذه الأيام الحافلة بالأحداث والخطوب. ولكن وزارتنا بحمد الله راضية العيش، قريرة العين، فارغة البال، ليس عندها من كبار الأمور ما يشغلها أو يقلقها، أو يضطرها إلى شيء من الجد والتفكير.

ليست في مصر أزمة اقتصادية لتجد الوزارة في حلها، وليست في مصر مشكلات سياسية لتفكر الوزارة في إزالتها، وكان يقال: إن بين مصر وبين أوروبا شيئاً من الخلاف في أمر الدين العام، ولكن الله قد قيض الإنجليز لمصر يكفونها شر هذا الخلاف، وينوبون عنها في تدبير حل له، قد يظفرون به وقد لا يظفرون، ولكنهم يعالجونه على كل حال؛ فمن حق الوزارة أن تريح نفسها من السعي إليه أو التفكير فيه. وكان يحكى أن المصارف الأجنبية تريد أن تستوفي دينها، وأن الناس عاجزون عن توفية هذا الدين، وأن أرضهم وثروتهم تتعرضان للخطر بحكم هذا العجز، ولكن وزير المالية يقظ يدرس الأمر، ويلتمس له العلاج، لا ينفق يوماً من أيامه حتى يتكلم فيه أو يتناوله بالبحث والدرس، وهو من أجل ذلك يطلب إلى بعض الدول الأجنبية في أوروبا وأمريكا أن تنبئه بما سلكت إلى حل هذه المشكلات من طريق؛ فيتلقى رد بعض الدول، وينتظر رد بعضها الآخر، وهو يدرس ما وصل إليه من ردود، ويتهيأ لدرس ما لم يصل

إليه بعد، وفي أثناء ذلك تستطيع الوزارة أن تستريح وتنعم بما لا تنعم به الوزارات في بلاد الأرض على اختلافها من راحة القلب وفراغ البال.

وكان يُزَوَى أن شيئاً يحدث في بعض حدود السودان، ولكن الله قد ألهم الإنجليز — الذين يحبون مصر أعظم الحب، ويعطفون عليها أحسن العطف — أن يُريحوا مصر من حدود السودان، كما أراحوها من السودان كله؛ فهم يفاوضون الإيطاليين، وهم يرسلون الجند والأسلحة إلى الحدود ليسندوا هذه المفاوضة، ويضمنوا لها الفوز، وفي أثناء ذلك تستطيع الوزارة أن تستريح، وأن تنعم بما لا تنعم به الوزارات الأخرى من قرة العين وفراغ البال، وكان يُشَاعُ أن طائفة من الفضائح تمسُّ الإدارة وتمسُّ المال قد ظهرت في الجو المصري؛ فكدرته ولم يكن صافياً، وسمّته ولم يكن هنيئاً، ولكن الله قد ألهم الوزارة أن تطوي كشحاً عن أكثر هذه الفضائح وتفترض أنها أحلام وأوهام، وأن تُؤَلِّفَ لجنة للتحقيق في واحدة منها، كما تستطيع وكما تمكنها الظروف. وبينما تحقق اللجنة، وبينما تذوب الفضائح الأخرى في بحر النسيان تستطيع الوزارة أن تستريح، وأن تستمتع بما لا تستمتع به الوزارات الأخرى من رضا الضمير وفراغ البال.

ثم كان يُذاع أن أموراً كثيرة أخرى نشأت، وأن أموراً كثيرة أخرى تريد أن تنشأ، وأن من شأن هذه وتلك أن تشغل الوزارة وتعنّيهَا، وتكلّفها من الجهد والمشقة ما تتكلف الوزارات اليقظة المتعبة. ولكن وزارتنا قد ألهمت أن تُعْرِضَ عما نشأ من الأمور، وألا تتعجل التهيؤ لما قد ينشأ منها، وأن تنعم بما لا تنعم به الوزارات الأخرى من هدوء الحال وفراغ البال.

وليس ضرورياً أن تكون راحة الوزارة صورة لراحة الشعب؛ فذلك

شيء يفكر فيه الأشقياء الذين ينظرون إلى الحياة نظرة الجد، وأما الفلاسفة المترفون، فإنما ينتهزون فرص الحياة، وينعمون بما يسنح منها، ويستمتعون بالراحة حين تتاح لهم الراحة، ولا يُحَمِّلُون أنفسهم عناء البحث عن المُتَعَبِينَ والمُرَزَّيْن ليخففوا عنهم ما يصيبهم من تعب، وما يُلْمُ بهم من أرزاء.

وإذا استراحت الوزارة وفرغ بالها؛ فلا بد لها من بعض اللهو، ولا بد لها من بعض التسلية؛ لأنها إن لم تفعل أدركها السأم وألحَّ عليها الملل، وليس شيء أثقل من السأم على نفوس المترفين. ولا بد للوزارة أن تتحدث إذا اجتمعت، ومن أن يتحدث أعضاؤها إلى أصحابهم إذا لقوهم أو خلوا إليهم، وهيهات أن يكون في الفراغ ما يملأ الحديث؛ فلا بد من بعض الأعمال يُنْفَقُ فيه الوقت، ويُسَلَى به الهم، ويُمَلَأ به الحديث. وأي شيء يُلَائِمُ حياة المترفين وحاجتهم إلى التسلية والعبث، يشبه جمع الجند وتفريقه، وتوزيع الشرطة في أنحاء الأرض، وتصعيدها إلى مصر العليا، والهبوط بها إلى ساحل البحر، والتضييق على الناس في حياتهم الضيقة، والعبث بالناس فيما يصيبهم من جد الأمر؟!!

ولم خُلِقَ الجند؟ ولم خُلِقَت الشرطة؟ إذا لم تستطع الوزارات أن تُخضعها بما يخضع له جند الشطرنج من ألوان الجمع والتفريق، ومن فنون الحركة والانتقال، وما دام الله لم يهيئ لمصر حرباً تستخدم فيها الجيش، فلا أقل من أن تهيئ مصر بنفسها فرصة تُظْهِر فيها أن عندها جيشاً، وأن هذا الجيش قادر ماهر يستطيع أن يتقدم، وأن يدور حول العدو وينفرج عنه، وأن يأتي من الحركات ما يقنع الناس بأن فنون الحرب لم تُجْهَلْ في وادي النيل، وإن لم تكتب الحرب على أهل وادي النيل.

ثم مَنْ الذي يستطيع أن يزعم أن الله لم يكتب الحرب على مصر،

وكل شيء يدل على أن الله قد كتب على مصر حربًا لا كالحروب، وأقرّ في مصر صراعًا لا عهد للناس بصراع مثله؟! متى رأيت دولة من الدول تحارب فردًا فتحشد له وتؤلّب عليه، وتشغل به نفسها آناء النهار وزلفًا من الليل؟!

متى رأيت دولة من الدول تحتل ألوان الكد والجد، وتتكلف ضروب المشقة والعسر، وتنفق من الذكاء ما مُنحت وما لم تُمنح، وتنفق من المال ما يُطاق وما لا يُطاق، لتحارب سيدة ترحل من بعض الأرض إلى بعضها الآخر؟! كلا، لم يكتب الله على دولة ما كُتبَ على الدولة المصرية من الحرب والجهاد، ومن الصراع والنضال. أم المصريين في الصعيد، ورئيس الوفد في الإسكندرية؛ هذا كثير، وأكثر منه أن بين الرحلتين أمدًا قصيرًا لا يسمح بالاستعداد والتهيؤ، والاحتياط للطوارئ. أما أنا فأشهد أن وزارتنا ماهرة حقًا، وأن وزير داخليتنا نابغة حقًا، وأن الظروف قد هيأت لحمايتنا قومًا لا يمكن أن يؤخذوا على غرة أو يبيتهم العدو وهم نائمون.

أرأيت كيف استحالت مصر السفلى أمس إلى ميدان حرب؟! أرأيت كيف استحالت الإسكندرية أمس إلى قلعة منيعة حصينة؟! أرأيت كيف طارت وزارتنا بالقوة الهائلة من أعلى الأرض إلى أدناها؟! أرأيت كيف كان الفرسان يحيطون بسيارة رئيس الوفد في الإسكندرية؛ جماعة من أمام، وجماعة من وراء، جماعة من يمين، وجماعة من شمال؟! أرأيت كيف كان المشاة يحيطون بنقيب المحامين وهو يسعى في الأقصر منذ أيام: يتقدمه عشرون، ويمشي عن يمينه عشرون، ويمشي عن شماله عشرون، ويسعى خلفه من شئت منهم؟!

أرأيت كيف كانت شواطئ النيل تُحمى حين كانت أم المصريين تعبر النيل؟ أرأيت كيف كانت تحيط بسفينتها سفن الدولة لتقطع

الصلة بينها وبين الأنصار والأعوان؟! أتشك بعد هذا في أن وزارتنا لا تُنفقُ ما مُنحتُ من فراغ البال في غير طائل، وإنما تنفقه فيما ينفع ويفيد، تنفقه في حماية الصعيد من أم المصريين، وفي حماية الإسكندرية من رئيس الوفد؟! ستقول: ولكنها لم تحم الصعيد من أم المصريين، ولم تحم الإسكندرية من رئيس الوفد؛ فقد زارت أم المصريين الصعيد وبلغت من زيارته ما شاءت، وزار رئيس الوفد الإسكندرية، وبلغ من زيارته ما شاء.

ولكنك تعلم حق العلم أن المهم هو أن تعتقد الوزارة أنها عملت شيئاً وأنها بلغت شيئاً؛ لأن المهم هو أن ترضى الوزارة عن نفسها، وتسعد الوزارة بحياتها، وتفخر الوزارة بقوتها وذكائها ونشاطها. وما دامت الوزارة راضية فنحن راضون، وما دامت الوزارة سعيدة فنحن سعداء.

والمهم بعد هذا وقبل هذا وفوق هذا هو أن يرى الإنجليز من براعة الوزارة ومهارتها في نقل الحرب من أقصى مصر إلى أقصاها، وفي التضييق على الوفد والوفديين ما يُقنعهم بأنها قادرة على البقاء، صالحة له، مُوفِّقة إلى ما يحبُّون من التسلية واللهو على حساب مصر؛ فالإنجليز أيضاً محتاجون إلى أن يضحكوا وإلى أن يلهوا، وإلى أن يستمتعوا بما لا يستمتع به غيرهم من فراغ البال. ومن المؤكد أن المندوب السامي الجديد سيشهد من ذلك شيئاً لم يشهده حين كان في الصين، ومن المؤكد أنه سيسعد بما يرى؛ فقد تعب هناك فيما عالج من الأمور الصعاب، فمن حقه أن يستريح هنا بعد ما احتمل من العناء، وأنا مطمئن إلى أنه سيستريح، وسيقضي أياماً حلوة بين صيد البط والنظر إلى مطاردة الوفد والوفديين.